كتاب الشهر

فاضل البدراني دارسًا تحوّلات هزّت أساليب التواصل

كيف يُواجه العرب تحدّي الثورة الرقميّة؟

خلافا لما نسمعه هنا وهناك، لن تنقرض الصحافة الورقية. لكنها مطالبة بالتجدد والابتكار. لعل هذه الكلمة السحرية، يمكنها ان تختصر مضمون كتاب "الاعلام الرقمي في عصر التدفق الاخباري". مؤلّفه الباحث والاكاديمي فاضل محمد البدراني يبرهن لنا ان العرب ايضا يقفون امام خيارين لا ثالث لهما: المساهمة في مجتمع المعرفة، او لعب دور المتفرّج والمستهلك لكل ما ينتج

صحيح ان الاعلام الرقمي فرض جملة تحديات على العرب بشكل خاص. اذ كشف حجم تأخرهم عن ركب قطار هذا العالم والمشاركة في صنعه بشكل فاعل. الا ان العالم المتقدّم ايضا ما زال يتخبط في هذا الفضاء، خصوصا اعلامه التقليدي وتحديدا الورقي الذي قد يهيأ لنا انه في طور الاحتضار. لكن في كتابه "الاعلام الرقمي في عصر التدفق الاخباري" ("منتدى المعارف")، يرى الدكتور فاضل محمد البدراني، الباحث المتخصص في شؤون الاعلام والاتصال، الاستاذ في جامعة بغداد، ان العرب "بدأوا اولى خطواتهم الجدية في حجز موقع لهم ضمن الثقافة الرقمية في المستقبل القريب"، على رغم التخلّف الراهن في هذا المجال.

الكتاب الصادر حديثا في بيروت، بقلم اعلامي واكاديمي عراقي تنقل بين محطات عالمية وعربية عدة، محاولة علمية تتوغل في خصائص الاعلام الرقمي وسماته وملامحه، والافاق التي ينمو فيها، ومخاطره والتحديات الاجتماعية والسياسية والامنية التي فرضها على العالم. لعله يمكن اختصاره بانه استعراض معمق للاعلام الرقمي عبر مقاربة فصوله المواضيع التالية: ماهية الاعلام الرقمي، التأثير السيكولوجي والاجتماعي لوسائل الاتصال، المحتوى الرقمي الاعلامي ومستقبل الخصوصية، مسألة التزوير في الصورة والفيديو والاخبار، وغيرها من القضايا المرفقة بامثلة تطبيقية تسهّل الفهم بالنسبة الى القارئ غير المتبحر في هذا الفضاء، كما الاعلامي على حد سواء.

يمكننا اختصار الاعلام الرقمي بالمزايا والاضافات التي قدّمها للعالم، على رأسها التفاعلية اي التفاعل بين الجمهور والمرسل من خلال وسائل الاتصال الحديثة ومواقع التواصل الاجتماعي، والحرية في الاداء الاعلامي حيث لا رقابة رسمية او مؤسساتية على ما ينشر، الى جانب تفتيت الجماهير. يقصد بهذه العبارة ان كل فرد صار يتلقى المواد والمعلومات والاخبار التي تناسبه فقط. طبعا، ترافق الاعلام الرقمي مع جملة تحديات، خصوصا لمؤسسات اعلامية تقليدية عريقة. صحيفة "غارديان" مثلا لجأت الى استطلاعات الرأي واستمزاج الجمهور من اجل معرفة ما الذي يريده. الا ان الاختصاصيين في المجال الاعلامي يعتبرون ان الصحف مستمرة رغم كل التحديات، وما عليها في ظل المنافسة المحتدمة التي تشهدها مع الاعلام الرقمي، سوى اعادة التفكير في المهنة بطريقة تواكب المتغيرات والتحديات الراهنة، عبر ابتكار وخلق منتوج نوعي راق من اجل استقطاب الجمهور.

يدعّم المؤلف وجهة نظره تلك من خلال دراسات واحصاءات اجرتها كبريات الصحف في العالم الغربي على رأسها "غارديان"، و"بي. بي.سي". يمكن ايضا التوكيد على نظريته في ما حصل مع مجلة "نيوزويك". عام 2013، قررت المجلة الشهيرة التوقف عن الصدور بنسخ ورقية، والانتقال الى الاعلام الالكتروني بعد ازمة مالية فرضها عليها الاعلام الرقمي والشح الاعلاني وتحديات العصر. لكن بعد توقف لفترة دامت عاما ونصف عام، عادت المجلة الاميركية العريقة (تأسست عام 1933) الى سوق المنافسة، مراهنة على التجديد والنوعية والابتكار في اختيار الموضوعات والتحقيقات المعالجة والحلة البصرية الجذابة. لم يأت هذا القرار من فراغ. اذ اثبتت الاحصاءات والدراسات الكثيرة التي اجرتها شركات الابحاث والاحصاءات العالمية ان الاعلام الرقمي لن يطيح الورقي، تماما كما لم يطح التلفزيون الاذاعة، ولا شاشة السينما التلفزيون. بل ان المسألة برمتها تقوم على لعبة توازن وتكيّف مع المستجدات والتطورات، وايجاد حلول خلاقة درءا للانقراض.

اذن، لم يقض الاعلام الرقمي على الصحافة الورقية، لكنه حمل جملة تحديات وآفات اجتماعية خطيرة، اولها انه شكّل اداة دعائية خطيرة وفعالة للعنف والتطرف والارهاب، الى جانب مسائل التحرش الالكتروني، وانتهاك الخصوصية، والادمان على الانترنت.

يتوقف المؤلف عند المؤتمرات والندوات الكثيرة التي اجرتها الدول العربية والغربية في شأن فرض رقابة على الانترنت، خصوصا وان مواقع التواصل الاجتماعي شكّلت "نافذة فاعلة للجماعات المسلحة والمتطرفة" لاستقطاب الشباب وغسل دماغهم وتوريطهم في عمليات انتحارية وارهابية. وقد رأينا نماذج كثيرة في السنوات الاخيرة في مختلف بقاع العالم من بريطانيا وفرنسا الى سوريا التي استقطب الارهابيون اليها افرادا وشبابا اوروبيين وعربا بدعوى "الجهاد".

لكن هل يكون الحظر هو الحل الامثل لمحاربة الارهاب الالكتروني بحسب العديد من الاصوات التي علت في هذا الشأن؟

يجيب المؤلف هنا، مستعينا بخبراء الاعلام الاجتماعي الذين يرون ان محاربة الارهاب الالكتروني لا يتم بالمنع والحجب والقمع، بل بـ"الاهتمام بالتربية الاجتماعية والنفسية للجيل الجديد، وضرورة الوصول الى حلول للازمات السياسية والفكرية لتجنب العنف الانتقامي المتزايد، وضرورة الادماج السياسي والاجتماعي للتيار الاسلامي، بحيث تكون هناك مساحات معلنة للحركة والوجود، من خلال تقوية دور المؤسسات الدينية المتنوّرة والمجتمع المدني، والدفع نحو تطوير اساليبهم الدعوية كي تواكب التطور الحاصل في وسائل التواصل المختلفة".

ليس الخطر الايديولوجي المتطرف التحدي الوحيد الذي يواجه العالم في ظل ثورة الاتصالات. فالاعلام الرقمي وضع الخصوصية الفردية في مهب الريح، نظرا الى ان المستخدم غير محمي من التطبيقات والبرامج التي تعمل مع مواقع التواصل الاجتماعي بهدف الدعاية والاعلان في حساب المستخدم. وقد تصل هذه التطبيقات الى عنوان ورقم هاتف المستخدم وحتى صوره الشخصية ايضا. يضاف الى هذه التحديات، مسألة التحرّش الالكتروني الذي يعدّ الاخطر والاكثر شيوعا في الفضاء الافتراضي.

بحسب التقديرات الدولية، هناك نحو 750 الف متحرش بالاطفال عبر الانترنت في الدقيقة الواحدة. في خضم كل هذه التحديات الاجتماعية التي فرضها الطوفان الافتراضي، مضافا اليه التحديات الامنية والسياسية، يشير المؤلف الى ان الحل يكمن في اتخاذ خطوات محددة تحمي الخصوصية كما تحفظ اطفالنا من المجرمين، ويروج يعدّد هذه الاجراءات مثل ضبط اعدادات الخصوصية على مواقع التواصل، والاحتفاظ بما لا يقل عن حسابين للبريد الالكتروني، واحد للاغراض الاجتماعية، واخر للاغراض التعليمية والمهنية، وانشاء كلمات مرور قوية للحسابات. الاهم من كل ذلك، التفكير مليا وطويلا قبل نشر اي معلومة تتعلق بالعائلة او الاصدقاء على الانترنت. في المقابل، يشدد الباحث على الاهل من اجل مراقبة ابنائهم بشكل مباشر او غير مباشر عند الابحار في هذه الوسائل، واستخدام برامج الحماية والمراقبة لادارة استخدام شبكة الانترنت ومنع الاطفال والشباب من الاستخدام المفرط لهذا الفضاء.

بعيدا من الافات الاجتماعية، يفرد المؤلف فصلا خاصا يفنّد فيه كل موقع من مواقع التواصل الاجتماعي كفايسبوك، وتويتر، و"سناب شات"، و"انستغرام"، و"يوتيوب". يعدد ميزات كل موقع، والخدمات التواصلية والبحثية التي يوفّرها، وامكاناته، الى جانب الانجازات الرقمية في التربية والعلوم. كلنا يعلم ان هذه الوسائل يمكن ان تشكّل سندا تعليميا صلبا ومريحا، خصوصا انها توفر سهولة تواصل بين الطالب والقيادات التربوية العليا، ما "يؤثر بصورة مباشرة على الطالب وولي الامر". يستشهد المؤلف بمجموعة من الاختصاصيين التربويين الذين يرون بان "التكنولوجيا توفر الجهد والوقت في دعم التعليم والمناهج بصورة عامة، وتخلق اجواء من المتعة المقرونة بالفائدة الكبيرة عند تلقّي المعلومات، ما يشجع الطلبة على الاقبال على المناهج العلمية بسعادة وراحة". من هنا، وجب صهر هذه الوسائل في العملية التربوية وتعزيز حضورها من اجل بناء اجيال تنهل من حب العلم ولا تكون مجبرة عليه.

يفرد الباحث فصلا اخر عن عملية التضليل وتزوير الصور التي شاهدناها كثيرا في الحروب الاعلامية خلال السنوات الاخيرة، ويقدّم للقارئ مفاتيح عملية لكشف الصور المزورة من خلال خطوات سهلة.

لكن في هذا الفضاء الواسع والمتشعب الذي يشهد منافسة محمومة بين الدول والافراد على الابتكار وانتاج مجتمع المعرفة، اين نقع، نحن العرب، في هذه العملية؟ هل سنبقى مجرد مستهلكين للمحتوى والبرامج من دون ان نكون خلاقين في ابتكار او تطوير شيء في هذا الفضاء؟

تشير دراسات واحصاءات كثيرة الى ضآلة نسبة المحتوى العربي عبر شبكة الانترنت بمختلف اشكاله، مقارنة باللغات الاخرى. يستشهد المؤلف بـ"مركز التراث الحضاري والطبيعي" في مصر الذي اورد ان حجم المحتوى العربي على الانترنت لا يتعدى نسبة 0.5% من المحتوى العالمي للشبكة العالمية. كما اوردت دراسة اجراها المركز ان نسبة التراث العربي والاسلامي المسجل على الشبكة العالمية لا تتجاوز 16.5% مما تم تسجيله على قائمة التراث العالمي. في المقابل، احتفظت اللغة الانكليزية منذ عام 2004 بالمرتبة الاولى من حيث الاستخدام من المبحرين على الشبكة (35%).

يستشهد المؤلف بالكاتب نبيل علي الذي عزى هذا الوضع المزري للغة العربية على الشبكة الى عوامل عدة ابرزها: غياب استراتيجيا عربية لصناعة المحتوى، غياب العرض، تفشي ظاهرة التبعية "سالمحتواتية" (نسبة الى المحتوى)، ضعف جهود البحوث والتطوير الخاصة بصناعة المحتوى، معالجة اللغة العربية آليا، هزالة الانتاج الاعلامي والسينمائي، قصور حاد في الموارد البشرية اللازمة لصناعة المحتوى، عزوف القطاع الخاص عن المساهمة في صناعة المحتوى، غياب شبه كامل لمحتوى الابداع الفني... الا ان المؤلف يضيف اسبابا اخرى تتمثل في غياب المساهمات الجادة والشاملة والتعاونية من طرف المجتمع العلمي في اقطار العالم العربي، بمضامين رقمية معرفية تشمل الدراسات والمقالات العلمية، وانعدام التكامل بين المبادرات الموجودة في بعض الدول العربية لتطوير استراتيجيات وخطط مستقبلية لتنمية المحتوى العربي الرقمي، وغياب تقليد منح الجوائز المقدمة لاحسن المواقع، والمضامين الرقمية باللغة العربية.

غلاف الكتاب.

اما المساهمة في مجتمع المعرفة، او الاكتفاء بدور المتفرّج